في الأدب الدرامي

١٢ ـ الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

المأساة العصرية أو الدرامة

(Le drame)

كانت كلمة الدرام تطلق على جميع الأنواع التمثيلية ، حتى خصصها المحدثون بنوع جديد عرفه قاموس المجمع العلمي الفرنسي بأنه (قطعة مسرحية نثرية أو نظمية تخلط المأساة باللهاة ، وتبرز الموضوع الجدي في المعرض الفكه ، وتقبل كل نمط من الأشخاص والأخلاق واللهجات) . وتكميلاً لهذا التعريف نضيف إليه كلمة قالها « هجل » وهي : (إنها نوع وسط غير مستقر ، يُعنى بدقائق الحياة الداخلية ومشاكلها ، وصور الحياة الخارجية ومناظرها ، وتتميز من المأساة الاتباعية (Classique) البسيطة الساذجة بكثرة أشخاصها ، وغرابة حوادثها ، وتعدد مفاجآتها ، وتعقيد العمل فيها الى حد الارتباك والغموض) . أما أرباب المذهب الابتداعي (Romantique) ومن قبلهم شكسبير فلم يكتفوا بتأليفها وتمثيلها ، وإنما وضعوا لها القواعد ، وشرعوا لها المناهج ، وقالوا إن الدرامة صورة صادقة مؤثرة للحقيقة ، بل هي الحياة نفسها : هي الهوى يعمل ويتكلم ويحكم ويفكر بصوت جهير أمام الجمهور السامع

إن المأساة لم ترد أن تتنزل عن أفق الأبطال والسراة والملوك ، واللهاة قصرت نفسها على وصف عيوب الأوساط ، أما الدرامة فهي أتم وأعم وأصح ، لم تفضل فريقاً على فريق ، ولم تؤثر طبقة على طبقة ، فهي تسوى بين الملوك والسوقة ، وتمزج البسمات بالعبرات ، وتستمد التاريخ والقصص والحكايات والخرافات ، لا تستثني شيئاً ولا تحتقر شخصاً ، ولا تحصر نفسها في ضيق القواعد والتقاليد ، فموضوعها الانسانية بأسرها . أما اليوم فقد اختلفت على هذا النوع الأسماء والتعاريف لتشعب مناحيه ، وتعدد مذاهبه ، واتساع مجاله ، واختلاف أطواره . فكان يسمى أولاً : الرواية الجدية الهزلية (Tragi-comique) ثم المأساة الحضرية (Tragédie bourgeoise) ثم المأساة الشعبية (Tragédie populaire) ثم اللهاة الجدية (Comédie serieuse) ، وهم يطلقون عليها الآن اسم الدرامة الحديثة ، أو الدرامة فقط . ولا نجد أبلغ في الكشف عن حقيقة الدرامة مما كتبه عنها زعيمها وابن مجدتها فكتور هوجو في مقدمة (كرومويل) نستمين بتلخيصه لك على شرح هذا النوع الطريف الذي يعدونه الآن أفضل الأنواع وأكمل الأشكال للتمثيل فوق المسرح الحديث ؛ لأنه باختياره الأشخاص من كل الطبقات ، وتفضيله التأثير في الحواس على تحليل الشهوات ، كان أكثر أنواع المأساة ملاءمة للذوق الديمقراطي الغالب اليوم .

قال هوجو ما محصله : النظارة أصناف ثلاثة : النساء والخاصة والعامة ؛ فالعامة يطلبون من الرواية العمل أو الحادث ، والخاصة يطلبون منها الخُلق أو الدرس ، والنساء يطلبن منها الشهوة والهوى . لأن العوام يبتغون من المسرح التهيُّج ، والخواص يبتغون منه التفكر ، والنساء يبتغين منه التأثر ؛ وغرض هؤلاء جميعاً اللذة : فالعامة تريد لذة النظر ، والخاصة تريد لذة العقل ، والمرأة تريد لذة القلب . ولكلٍّ منهم الحق فيما يبتغي ويريد . ومن ثم كانت روايات هوجو ثلاثة أنواع مختلفة : أحدها عامي سوقي ، والآخران شريفان رفيعان ، وفي ثلاثتها حاجة المسرح وكفاية الناس . فللعوام المأساة العامية (الميلودرام) التي تصف لهم الفظائع ، وللخواص اللهاة التي تصور لهم الأخلاق ، وللنساء المأساة التي تحلل لهن الأهواء . وربما تدخل بعض هذه الأنواع في بعض ، فقد يوجد في السوقة من يتذوق الجمال ويتطلب الكمال ويفرق في التخيل ، وفي السراة من يطلب غير الأدب لطف الشعور ، وفي النساء من تبتغي مع التأثر رياضة الذهن . فغرض الدرامة إذن هو تصوير الأخلاق بخلق الأشخاص وتمثيلهم على المسرح تبعاً لشروط مستمدة من الأدب والطبيعة ، وبث الأهواء والنوازع في هؤلاء الأشخاص لبيان أخلاقهم وتوضيحها ، واستخراج الحياة الانسانية من هذه الأخلاق والأهواء التي تتصادم وتتلاحم ، فتنتج الوقائع الكبيرة والصغيرة ، والحوادث المحزنة والمضحكة ،

التى تنطوى على لذة للقلب يسميها الناس منفعة ، وعلى عظة للعقل يسميها الحكماء حسن خلق . فبان من ذلك أن الدرامة تأخذ من المأساة تحليل الأهواء والشهوات ، ومن الملهاة تصوير الأخلاق والعادات . فهى الشكل الثالث من أشكال الصناعة الأدبية ، وهو أكبرها وأعمها ، لأنه يشمل الشكلين الأولين فيمزجهما ويشرحهما . ولولم يوجد شكسبيريين كورنى وموليير فمد يسراه الى الأول ويمناه الى الثانى ، لبقى كل منهما بعيداً عن الآخر ؛ فبوجوده التقت الملهاة بالمأساة التقاء الموجب بالسالب فى الكهرباء ، فحدث من التقائهما شرارة هى الدرامة

ثم مضى هوجو بعد ذلك فى بيان حقيقة الدرامة من جهة الفلسفة التاريخية نحيلك عليه إذا شئت ، ونكتفى نحن هنا بما أجملناه من كلامه

فالدرامة إذن تقبل كل نوع ، وترتضى كل شكل ، ما دامت تضمن التأثير فى المشاعر والخواطر والقلوب ، وهى تسلك لهذه الغاية أسهل الطرق وأقرب السبل . فلها فى الطفولة المعذبة ، والشيخوخة العاجزة ، والأمانة المهدمة ، والكرم فى الأملاق ، والقحط واليأس ، مواقف قوية التأثير شديدة الروعة ؛ وفى المستشفيات والسجون والأحياء الفقيرة العاملة مسارح للرعب والرحمة ، لها من البيان والتأثير مايغنى المؤلف الذى يعرضها للأنظار والأفكار عن تكلف الأداء وتجشم البلاغة

إن المصائب المنزلية ، والحوادث الاجتماعية ، لا تدهشنا حقيقة كما تدهشنا مصائب الملوك ومخاطر الأبطال وحوادث القصور ، ولكنها تؤثر فينا كل التأثير لاتصالها بنا واقترابها منا ؛ وإذا كان أفضل الأنواع أمتعها للجمهور ، وأشدها أثراً فى الكثرة ، فان الدرامة تفوق المأساة بهذه المزية ، وتفضل الأنواع جميعاً بقوة الجاذبية . وإذن يكون كورنى وراسين وفولتير قد جهلوا فن التأثير ، وسهروا الليالى الطوال فى البحث عنه فى الطبقات العليا ، والحوادث الكبرى ، وهو منهم على طرف الثمام لو نظروا فى الطبقة الدنيا وفكروا فى الحياة العامة . ولو كان هؤلاء حقيقة قد جهلوا قوة الدرامة وسهولتها فما بال الأغريق واللاتين لم يتوسلوا بهذه الوسائل القريبة إلى التأثير والجاذبية ؟ وما بال شكسبير وهو إمام الروائيين غير مدافع لم يختر موضوعاته من حياة الشعب ، وفضل جرائم الملوك ونكباتهم على جرائم السوقة ونكبات العامة ؟ الحق أن الأغريق كانوا يعلمون علم اليقين أن فى الناس من كبابه الجد فألقاه فى مراغة الذل والبؤس ، فأعسر بعد اليسر ، وهان بعد العز ، ولكنهم كانوا يجهلون أو ينسون أن الملوك هم أيضاً غرض لسهام القدر ، وأن المرء مهما عظم قدره لايعظم على النوائب ولا يكبر على الاحداث ، وأن خطوب الدهر لا تخص بفتكها طبقة دون طبقة ، فاستفادوا من المسرح هذا الدرس النافع والعظة البالغة . كذلك كانوا يعلمون أن فى الناس المأفون والشهوان والخبيث والمجرم ، ولكنهم كانوا يجهلون أن الملوك أيضاً فيهم الأفن والشهوة والخبث والأجرام ، وأن نتائجها فيهم أفظع وأفجع منها فى السوقة ، فاستنتجوا من المسرح أن الشعب مأخوذ بجرائر الملوك ، فأخذوهم بالحزم وحسن السياسة ، بَلْهَ ما كان عليه الناس فى الأزمان الخالية من تنزيه الملكية ، وتقديس البطولة ، وازدراء الشعب . فلما ابتذلت أفنية الملوك ، وعلت كلمة الشعوب ، وغلب نظام الدمقراطية ، احتقر الناس مصائب الخاصة ، ورأوا أن الاهواء والأرزاء تنصب فخاخها لكل الناس ، وأن الواقع فيها من أى طبقة ومن أى بيئة يصح أن يكون عبرة ونكالاً لغيره . حينئذ أخذ الكتاب يدرسون العامة ، ويعلمون الجمهور بتحليل نفسه وتعليل جرمه ، ويثقفون خلقه بتصوير نقصه ووصف عيبه ، فيحاربون العيب بالخوف من السخر والخشية من الخجل ، والجريمة بالفزع من وخز الضمير الذى يصحبها والقصاص الذى يعقبها ، والهوى بوصف ما يجره من الآلام والمخاطر والمصائب ، ووجدوا الحال تقتضى نوعاً جديداً من الرواية يلائم حال الاجتماع ونظام الحكومة ورقى الفكر ، فكانت الدرامة وليدة هذا الانقلاب وسداد هذا العوز

على أن التأثير والجاذبية لم يكونا يوماً ما من أغراض المسرح فى الأمم المثقفة المستنيرة ، وإنما كان التمثيل عندهم كالخطابة ، يجذب ليهذب ويعلم ، ويؤثر ليقرر ويفهم . وما التأثير إلا وسيلة من وسائله لاغاية من غاياته . فالدرامة التى لا تعلم ولا تهذب تكون من المأساة بمثابة المهزلة من الملهاة . ولا شك أن المهزلة (Farce) تضحك الجمهور أكثر مما تضحكه ترتوف والمستوحش ، والدرامة التى من هذا النوع تبكيه أكثر مما تبكيه (سنا) و (أتالى) ؛ ولكنه اذا ظل مائة سنة يضحك ويبكى لهذه المناظر ، فأية فائدة يستفيدها ، وأية فكرة يكتسبها ويستزيدها ؟

فالدرامة القوية هي ما وضعت في قلب الرجل علل حوادثه وبواعث عمله ، فتجعله شقياً برلته ، مشفياً على الخطر بغفلته ؛ وهي لذلك تطلب مؤلفاً يكون ثاقب الفكر صادق النظر قوى الملاحظة خصب المخيلة عميق الاحساس بليغ الأسلوب جيد الاختيار ؛ وموضوعاً يجمع بين التأثير والافادة وبين الابتذال والصيانة وبين الغرابة والسذاجة ، فلا يكون عقيماً ولاسقيماً ولا سوقياً ولا شعرياً ولا متكلفاً ؛ وعملاً يكون سيره نشيط الحركة موزون التدرج محكم التعقيد بارع الحل ؛ وعاداتٍ حضرية أو شعبية تكون مع موافقتها للحق غير ساقطة ولا جافية ؛ ولهجةً بسيطة تلائم الأشياء والأشخاص ، فتكون صحيحة سهلة نقية ذكية شاعرة لاتعلو على الموضوع ، ولا تسفل إلى درك التعمل والركاكة . وتلك مطالب أعيت أولى القرائح الكليلة ، فانصرفوا إلى الجانب الأسهل منها ، وأخذوا يلتمسون التأثير في الجمهور بعرض الحوادث المنتزعة من الحياة العامة لتنبههم بفظاعتها عن إجادة الكتابة وإجالة الفكر ، ويبنون هذا الرأى السخيف على قاعدتين خاطئتين : أولاهما أن كل جذاب من القول والفعل صالح للمسرح ، وأخراهما أن كل ما أشبه الطبيعة جميل ، وكل تقليد صادق لها حسن . لا أنكر أن لا شيء يَلُوع القلب ويمزق الحشا مثل أن ترى بيتاً مهدماً تسكنه امرأة كريمة عدا عليها الفقر ومسها الضر وجاز بها الدهر حد اليأس والفاقة ؛ وأنا زعيم لك بأنك تغرق الناس بالدمع ، وتضرم الأنفاس بالحزن ، إذا عرضت على العيون منظر هؤلاء الأطفال يتضاغون من الجوع ويطلبون الى أبيهم المسكين كسرة من الخبز وهو لا يستطيع ، ومثلت دموع تلك الأم ترى رضيعها يلفظ أنفاسه في حجرها من السغب وهي لا تملك له حياة ولا نفعاً ، ولكن أرني ذلك الشعب الغليظ الكبد الذي يلهيه ويسليه مثل هذه المناظر ؟ وأية فائدة تجدها في هذا المصاب الأليم العقيم الذي فجع هذه الأسرة وهي لم ترتكب خطأ ولم تقترف إثماً ؟ آلمني ، ولكن لتعلمني كيف أحتاط لنفسي من الوقوع في مثل هذا الضرر الذي أشهده . مثل لي أسرة بائسة أوقعها بين مخالب البؤس والفاقة عيب أصيل في نفسها ، وهوى دخيل في قلبها ، فان الألم الذي ينالني من رؤية هذا المنظر يعوضني منه ذلك الدرس الذي أستفيده من شهود ما يجره الهوى المتحكم والعيب المتأصل من الأذى والمضرة : أستفيد أن الانسان حر في اتقاء مثل هذا المصاب ، وأن أسبابه من العيب والهوى والغفلة والضعف لم تكن أدواء لازمة ولا محتومة . أما الحرق والغرق والزلزال والوباء وكل ما يصيب المرء من غير كسبه ولا اختياره فلا أستفيد من رؤيته غير الألم العقيم والهم الخالص

إن فضل الكاتب وجمال المسرح هما في عرضهما ما نود أن نكونه لا ما نحب أن نتأثر به . ومهما يكن الشيء العامي المبتذل مؤثراً ، فلا بد أن يكون على المسرح أسمى وأروع مما أستطيع أن أراه وأسمعه من شباك بيتي ، فان بين الأشياء المؤثرة كذلك تفاوتاً وتفاضلاً وتخيراً . وليس في الحياة موضوع يصح أن يكون روائياً بنفسه اذا قلدته على علاته ونقلته بجميع صفاته ؛ فقد تجد فيه من الطول والفضول والنقص والسخف ما يخجلك إذا حكيته ، ويأفنك إذا مثلته . إن مهارة الكاتب القصصي في أن يجعل الموضوع طريفاً لذيذاً ، ومهارة الكاتب الروائي في أن يبسطه ويزخرفه ، فيحذف منه البارد الفث ، ويضيف اليه ما يزيد في تأثيره وحدته وجدته وطرافته ، بحيث يكون شبه الحقيقة وهيئتها لا صورتها ولا نسختها . والحال في الأعمال مثل الحال في الأقوال : فان الكاتب الذي يكتب كما يتكلم ليس بكاتب . إذ كل لغة من لغات الناس فيها الشريف الحر والرقيق الأنيق ، كما أن فيها السوقي والحوشي والفج . والذوق وحده هو الذي يصفي العبارة من اللغو ، وينقي الأسلوب من القمامة ، كما يعزل الغربال الزوان والحصا من الحب الصحيح . ذلك ما نعقله ونقبله ؛ أما نقل ما ترى وحكاية ما تسمع بما فيه من سماجة وفضول واقتضاب ، على أنه صورة الطبيعة ورسم الحقيقة ، فتلك حجة يلجأ اليها الأدعياء ليدرأوا عن أنفسهم معرة الضعف في الاختيار والعي عن الابتكار والعجز عن التجديد والتوليد

بعد ما تقدم نستطيع أن نجمل القول في المأساة العصرية بذكر الفروق بينها وبين المأساة القديمة فنقول : إن الدرامة تجمع بين الجد والهزل والسرور والحزن والاحتشام والتبسط والضعة والرفعة ، وتختار أشخاصها من كل طبقة وبيئة ، وتقتبس موضوعها من حياة العامة أو العصور الوسيطة أو العصر الحديث . أما المأساة فكما علمت تزدري الموضوعات القومية والعصرية ، وتختار موضوعاتها من الأساطير أو من التاريخ القديم ، وتعنى على

[البقية في أسفل الصفحة التالية]